الخطاب المقاوم للكلونيالية في رواية سهم الله لتشينوا أتشيبي

"The Anti-Colonial Discourse in Chinua Achebe's Novel 'Arrow of God'

عبد الرّحيم بوقفة*

مخبر علم تعليم العربية، المدرسة العليا للأستاذة، بوزريعة- الجزائر

abderahim.bougoufa@ensb.dz

أحسن الصيد

المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة -الجزائر

hassan.mwefek@ensb.dz

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2024-08-26	2025-04-07	2025-06-03

ملخّص: سعت الرواية في السّياقات المابعد كولونيالية إلى كسر الحواجز والحدود وتجاوز الرؤية القاصرة التي تختزلها كأداة أقصى غاياتها إمتاع قارئها، لتغدو بذلك وسيلة تصدٍّ للمد الثقافي الغربي الذي اتشح بأردية التمدين والتحديث وحوار الهويات ليمرر مشاريع الهيمنة، لقد تمكنت الرواية كمنتج ثقافي من تفكيك الصورة النمطية التي روجت لها سرديات المركز، وهو ما نتمثله في رواية سهم الله لكاتبها تشينوا أتشيبي التي حاول فيها تحطيم الصورة النمطية الآخر - الإفريقي تحديدا- كإنسان دوني من الدرجة الثانية وذلك عبر رصده لضراوة الصراع بين الأصلانيين المهمشين والبيض الإستعلائيين. وفي هذا الصدد تتغيا هذه الورقة البحثية الحفر في الممارسات التي ينتهجها المركز لبسط هيمنته وكشف الآليات التي تعمل من خلالها الرواية على إرساء هوية الأصلانيين ودحض سردية المركز.

الكلمات المفتاحية: الخطاب المقاوم؛ السرد؛ تشينوا أتشيبي؛ الهوية الافريقية.

---

* المؤلف المرسل

Abstract: The novel, in post-colonial contexts, has sought to break barriers and transcend the narrow view that reduces it to a mere tool for reader entertainment. Instead, it has become a means to resist the Western cultural wave, which has often been cloaked in the guise of civilization, modernization, and identity dialogue to further hegemonic projects. As a cultural product, the novel has succeeded in deconstructing the stereotypical image propagated by the narratives of the center. This is exemplified in Chinua Achebe's novel *Arrow of God*, where the author attempts to shatter the stereotype of the "Other"—particularly the African—as an inferior being of a secondary status. The novel captures the fierce struggle between the marginalized indigenous people and the supremacist whites. In this regard, this research paper aims to delve into the practices employed by the center to establish its dominance and to uncover the mechanisms through which the novel works to establish the identity of the indigenous people and refute the central narrative.

Keywords: Anti-Colonial Discourse; Narrative; Chinua Achebe; African Identity
.

1. مقدمة: تجاوزت الأنظمة الامبريالية في فرض هيمنتها على مستعمراتها الأساليب العسكرية المباشرة إلى الأساليب غير المباشرة أو الناعمة كما يسميها البعض في تمريرها لخطاباتها المشرعنة لوجودها، ومن جملة تلك الوسائل: السينما، والأوبرا –مغناة عائدة–، والقصص والروايات التي هي محل دراسة هنا. إن الوعي بخطورة التجربة الامبريالية لدى نخب المستعمرات أنتج لنا حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية. هذا الحقل الذي لتشريح العلاقة بين المستعمر والمستعمر. متخذا من ديالكتيك السيد والعبد، الأبيض والأسود، المركز والهامش، منطلقا لها. ذلك أن الرؤية التي تمتلكها المراكز الحواضرية الأمبريالية عن الآخر تتلخص في كونه كائنا متخلفا همجيا بربريا بحاجة لمن يجعله من المتحضرين، أي أن إدراك الرجل الأبيض لدونية الآخر المختلف عنه لونا وعرقا ودينا والذي يرزح تحت وطأة الجهل والفقر والمرض أتاحت له ممارسة الوصاية عليه لتمدينه وإعادته لمشهد الحضارة وهو ما نستجليه في كثير من النصوص التي تندرج في إطار المعتمد من مثل: رواية كيم لروديارد كيبلغ والعاصفة لوليام شكسبير وروضة مانسفيلد لجين أوستن وقلب الظلام لجوزيف كونراد

التي تشترك جميعها في القول بعجز الأصلانيين عن التحرر ما يجعل الوصاية الامبريالية عليهم معطى بديهيا. إن إدراك كتاب من أمثال وول سوينكا ونقوني واثينغو وتشينوا أتشيبي لجسامة الصورة المضللة التي تم من خللها تمثيلهم جعلهم ينتهجون السرد كاستراتيجية مضادة لتقويض الافتراضات المتحيزة الناتجة عن عملية تمثيل الآخر، ممثلا بذلك آلية مقاومة متورطة في إطار مرجعيات ثقافية متصلة بجوانب من دينامية الهوية والاختلاف والايديولوجيا والسلطة.

إن المنتج الروائى لأتشيبي وبالتحديد رواية "سهم الله" تسترجع ماضي الكولونيالية البربري الذي حاول السيطرة على الأصلانيين بمختلف السبل، حيث يصور لنا وحشية الاستعمار البريطاني في نيجيريا. بالإضافة إلى تصويره للأصلاني النيجري الذي قاوم من خلال تشبثه بهويته وتقاليده، من هنا كان مدار الإشكال في هذه الورقة البحثية حول ما يلي:

ما هي سبل المقاومة التي رصدها أتشيبي للأصلانيين في حدهم من المد الأمبريالي؟ وكيف صور البريطاني في خلال الفترة الكولونيالية؟

2. الهويات المغايرة والاستيلاب الايديولوجي: ترجع بنا أحداث رواية سهم الله إلى عشرينات القرن الماضي، أين كانت نيجيريا تقبع تحت حكم الإمبراطورية البريطانية، تركز الرواية على المقاومة التي عرفها شعب الإيغبو ضد الاستعمار. يحتفي أتشيبي في الرواية بالهويات المتمازجة والمتباينة التي عرفتها القبائل الثلاث- أوكبيري وأنينتي وأمواروا – يسعى الكاتب في الرواية لإنشاء صورة جديدة للأديان الإفريقية، كما قام بدمجها مع الديانة المسيحية ناقلا أزمة الأديان الإفريقية التي حطمها التبشيريون البيض، وفي طابع بوليفوني يعالج أتشيبي صراع الثقافات والخلافات الدينية بين الفصائل التي يختص كل منها بإله.

يحتفي الروائي بالتنوع الديني ويراه مزية مستقاة من الموروث الشعبي للإفريقي بخلاف الرجل الأبيض الذي يراه منقصة ويتخذ رؤيته للأديان الإفريقية مطية لتمرير الحملات التبشيرية فيما ظاهره إلحاق للإفريقي بركب الحضارة المادية وباطنه استئصال لموروثه الثقافي، وإرغام له على ترك الطقوس التي نشأ عليها. لقد اقتضت نظرية ما بعد الاستعمار توافق هوية الآخر في الدين مع هوية الآخر في اللون وفي الولاء، ذلك أن تحدي الآخرية يوقظ عند الأفراد الرغبة في الحماية النسقية. وإظهار مغايرتهم عبر التحصن بالسلاح الأكثر قوة وهو الدين[1]. إن الدين في رواية سهم الله لا يتمظهر كمعطى ثقافي أو إيماني بقدر ما هو هوية سياسية في وجهه هوية سياسية أخرى – يصور أتشيبي على لسان شخصية (موسى أوناشوكو) حالة الاستلاب الديني التي أنتجها النظام الامبريالي الذي اعتمد على تكثيف الحملات التبشيرية للرجل الأبيض "يملك قوة مصدرها إله حقيقي قوة تحرق مثل النار"[2]. إن ازدراء أوناشوكو لمعتقدات القبائل الست في مقابل تعظيمه للمسيحية هو تصوير لاضمحلال الروحانية الدينية التي عرفتها قبائل الايغبو لصالح صعود المسيحية مدعومة بالنفوذ السياسي والعسكري للرجل الأبيض، يؤكد أتشيبي على الهوية الدينية من خلال إعلائه لحدة التوتر التي عرفتها القبائل مع القوة الامبريالية، "ولسنا في حاجة لأن تخبرنا بتلك الحماقة التي تدعوها دينهم الجديدة"[3]، ذلك أن أتشيبي يرى في تعدد آلهة القبائل الست وفي تقديمهم للقرابين للآلهة خصوصية دينية وثقافيه تحفظ هوية الأفارقة، وتمايزهم عن المركز الاستعماري، ومن هنا كانت انطلاقة أتشيبي من رؤية ثقافية واضحة اصطبغ بها نتاجه الروائي تقر هذه الرؤية بأن "تشكل الهوية يكون بواسطة الاختلاف"[4] أي أن المغايرة والفرادة تضحي آلية مقاومة في وجه الثقافات الساعية للهيمنة.

إن ذكر الأسواق الشعبية للقبائل الست وتحديدهم ليوم يجتمعون فيه، بالإضافة إلى الطقوس المقامة في الأعراس داخل الرواية، لم يكن من قبيل الترف السردي. بل إن ذلك ينم عن وعي الكاتب بأن تفكيك المركز الامبريالي يحصل من خلال التأكيد على الثيمات التي تجعل من البنية الثقافية والاجتماعية للمستعمر مغايرة تماما للبنية الاجتماعية للأصلانيين.

إن أغاني البنات "غنت البنات أغنية الأفيوما"[5]، وإلصاق النقود فوق جبهة العروس، واحتفالهم بمهرجان العام الكبير أو عيد اليام "كانوا يسمونه أكورنو الذي يتسم بممارسة قليل من الشعائر"[6] بالإضافة إلى تقديم الأرامل القرابين لأزواجهم الراحلين هو تأكيد على التعددية الثقافية التي تختص بها قبائل الايغبو، إن إدراك أتشيبي للتنوع الثقافي المكون لثقافة النسق الإفريقي أمام واحدية النسق البريطاني، جعله يستعين بتنوع التجربة الإفريقية ليصوغ بذلك الوحدة الوطنية لقبائل الإيغبو والتي من خلالها يسعى المستعمر لخلخلة المركز والوقوف أمام سطوته، وغير بعيد عن ذلك يشير الروائي إلى تفطن المركز لأهمية الاستثمار في التراث الثقافي الافريقي لتمرير مخططاته الإمبريالية، "استمر الحصاد المسيحي أياما قليلة وقد شهد الحصاد كثيرا من الناس أكثر مما كان يحلم جود كنتري"[7]. إن ربط المسيحية بالتفاصيل الحياتية ومن ذلك الحصاد باعتباره تقليدا ثقافيا مقدسا، يعكس سعي الامبريالية للتماهي مع مستعمراتها لإضفاء نوع من المقبولية للمسيحية وللاستعمار بحد ذاته، إن منح الوقائع اليومية التي لها علاقة بنسق المستعمر هالة من القداسة والتبجيل؛ ومن ذلك العناية باليام ووصله بالدين المسيحي "أرسل الناس أولداهم لتقديم اليام إلى الدين الجديدة"[8]. ليس احتفاء من المستعمر بثقافة النيجيري التي تقدس اليام، بل هو استثمار لهذا التراث لغاية خلق أفراد يظهرون مقبولية أو استعداد للسيطرة والإذعان. يضاف إلى ذلك أن تعقب القرويين للمسيحين وإحراقهم لبيوتهم بعد قتلهم للثعبان

المقدس، هو ما شكل وعيا لدى السيد جود كنتري باعتباره طابورا خامسا لصالح بريطانيا بضرورة انتهاز التقاليد الدينية الافريقية وربطها مع المسيجية "كما كتب الأسقف خطابا لجود كنتري مؤكدا له أن راعي الأبرشية سوفلن يتدخل بشأن الثعبان لكنه سيصلى لأجل اليوم الذي يتحول فيه الكاهن وشعبه من عبادة الثعابين إلى اعتناق الدين الحقيقي"[9] يأتي ذلك مصاحبا للنظرة الازدرائية الاستعلائية التي يحملها المركز تجاه الديانات التي يعتقنها الأطراف إذ يفترض أن جميع المستعمرين الذين لا ينتمون إلى المسيحية وثنيون "أنستطيع أن نخبر إخواننا الوثنيين أن يأتوا بيامة واحدة للكنيسة"[10] مصورين بذلك المسيحية كخطة إلهية لتخليص الوثنيين "إنها ساعة الرب لإنقاذهم من الدمار الذي يهددهم "إن سياسية المستعمر التوسعية لم تقف عند استثماره في التراث الديني للأفارقة بل تعدته إلى توفير التعليم والقراءة للناس غير أن التعليم الذي وفرته بريطانيا هو تعليم موجه وممنهج ليخدم أطماعها التوسعية، ولذا يتمظهر التعليم كشكل فعال في انتشار الاستعمار "بدأ كثير من ذوي الشأن في إرسال أولادهم إلى المدرسة .... تطورت مدرسة وكنيسة السيد جود كنتري وراح يبشر بالإنجيل ويعلم تعاليم النصرانية"[11] إن اعتماد المركز على الدين والتعليم في تمرير أنساقه الإيديولوجية ساهم في تشكل وعي زائف لدى المستعمرين، ظهرت نتيجته في ختام الرواية من خلال تصوير حالة الانقسام والتشظي الهوياتي الذي جعل سكان القبائل الست يتحللون من تقاليدهم الدينة اعتناقا للمسيحية.

3. الصورة بين النمطية والتقويض: استحوذت الصورة على الاهتمام الأكبر في الدراسات المقارنة باعتبارها تبحث عن التصورات والتمثلات التي تم بها رسم الأنا في المنتج الأدبي للآخر أو صورة الأخر في أدب الأنا انضوت هذه الدراسات تحت مسمى الصورولوجيا على اختلاف التسميات التي يعرفها (الصوراتية، الصورائية...) وقد حدد الكثير من الدارسين مفهومها فكان أن رأى سمير حجازي أنها "تصور حسي

في البناء الفكري للناقد يكتشف عن طريق الدلالات اللغوية والنفسية والفنية أو تصور ذهني يتم عن طريق التشبيه أو الاستعارة أي أنها تختص بالاستعمال الاستعاري للكلمات المدرجة في النص الأدبي"[12] في حين رأى رولان بارت أنها "ما يحمله الآخر من أفكار وتصورات عني"[13] فأشار إلى أن الصورة هي ما أعتقد أن الآخر يفكر في أي أن الصورة الأدبية هي دراسة لتمثل الأجنبي في أدب المحلي وهو ما يسلتزم من دارس الصورة الإحاطة بمختلف المرجعيات الاجتماعية والثقافية للبلد المستهدف، لكن الحديث عن الصورة في سياقات الكولونيالية وما بعدها بات أكثر دقة وخطورة ذلك أنه أحالنا إلى مفهوم الصورة النمطية stereotype باعتبارها" تمثيلا بسيطا وحيويا في الآن ذاته يختزل الأشخاص في مجموعة من الصفات التي غالبا ما تكون ذات طابع هش وسلبي كما أنها شكل تمثيلي يجوهر الآخرين من خلال عملية السلطة"[14] أى أنها تحيل إلى الخصائص التي تمثل جميع ما يكون عليه الشخص أو ما يمكن أن يكونه، وهو ما نستجليه في رواية قلب الظلام heart of darkness لجوزيف كونراد التي جاءت رواية سهم الله ردا مباشرا عليها إذا ورد اسمها في مستهل الفصل الثالث تلميحا – تنقل رواية كونراد صورة مشوهة عن الإفريقي النحيف الذي يكابد الجهل والمجاعة مع انعدام إمكانية تخيل بديل متحقق تحققا تاما للأمبريالية إذ يصور كونراد الأفارقة الأصلانيين عاجزين عن الاستقلال، ما يحيلنا إلى القول بأن الوصاية البريطانية عليهم كانت معطى بديهيا.

إن كونراد وهو يؤسس لصورته النمطية قد أتاح لقرائه تخيل أي شيء آخر غير إفريقيا مقطعة الأوصال ومتشظية إلى عشرات المستعمرات. وهي الصورة التي سعى أتشيبي في سهم الله لتقويضها. ولكنه قبل تقويضها يستحضر الرؤية الاستعلائية لفكر الرجل الأبيض ونظرته الدونية للأصلانيين وهو ما يرد على لسان (وينتربوتوم) "لقد كانوا أعداء قبل مجيئي" إن استحضار أتشيبي في الفصل الثاني من

الرواية لتنازع قبيلتي (أوموارو) و(أوكبيري) واشتداد الحرب بينهما وتدخل الرجل الأبيض لفض النزاع وإحلال السلام، إن مسارعة (وينتا بوتا) بإحضار جنوده إلى (أوموارو) لإيقاف الحرب هو تصوير للإيديولوجية التي تتلحف بها الأنظمة الامبريالية لتمرير مخططاتها، إن عدم اكتفاء الرجل الأبيض بإيقاف الحرب، بل جمعه لكل الأسلحة وتكسيرها في ظاهره منع لاشتعال الحرب ثانية وفي مضمره إجهاض لأي مقاومة للسكان الأصليين إذا ما فكروا يوما في التخلص من الرجل الأبيض، "لم يتوقف الرجل الأبيض عند إيقاف الحرب ولكنه جمع كل الأسلحة في أوموارو وأصدر أمر الجنود بتكسيرها في وجههم"[15]، يعود أتشيبي لدحض صورة العدالة التي يدعيها النظام البريطاني على لسان إيزولو في الفصل الخامس عشر، "خاصة وأنه يبدو أنهم يمارسون العدالة رغم أنهم وكذلك"[16].

يتجاوز أتشيبي ما أتى كونراد على ذكره في روايته من خلال تأصيله للعادات التي تعكس حضارية المجتمع الافريقي وتمدنه من ذلك وقوفه على نظام الشورى القائم بين القبائل الست "لن نحاربك وإنما سنأتي من أجل التشاور مع نسيبنا وقريبنا"[17].

إن تكرار فكرة تبادل التحايا بين أفراد العائلة وبين القبائل حتى في حالات النزاع هو نقض للصورة المبتذلة والجامدة لبدائية الإفريقي وغوغائيته التي سعت مرويات الإمبراطورية إلى تمثيل الافريقي من خلالها "قدم إيزولو التحية لكل واحد باسمه وقال أرحب بكم جميعا"[18].

يؤسس أتشيبي في روايته لكرم الضيافة عند الأفارقة "أحضر وافو جوزة الكولا وتم توزيعها على الحاضرين"[19]، قام بدعوة الضيوف إلى صالة الطعام ووضع حصيرة نظيفة تصلح لإقامة الضيوف"[20] إن قداسة الضيف في ثقافة الإفريقي هي ما يراهن

عليه الروائي في دحضه للصور النمطية التي تبنتها ثقافة الامبراطورية وجسدها أدبها "هل تتوقعين أن أستقبل الناس في كوخ قذر"[21] إنكم تخافون الإساءة إلى مضيفكم"[22] تمكن أتشيبي من خلال الصور المضادة التي ساقها خلال فصول الرواية من الانتقال من موقع التابع الصامت إلى مقاوم منتج لخطابه المضاد، معاكسا بذلك الإنشاءات الثقافية والسردية الغربية التي لم تكن محايدة في نقلها للواقع.

4. الهوية السردية وكريولية اللغة: إن الإنسان في أي نص يكتبه هو بشكل أو بآخر يبحث عن هويته غير أن أتشيبي بخلاف ذلك لم يكن يبحث عن هوية، بل كان يسعى لتدعيم هوية موجودة في الأصل ويدافع عنها من خلال السرد، إن تمحور سهم الله حول الذات الإفريقية وتجسيدها لها من خلال استبطان ما يميزها بواسطة السرد هو تأكيد على وجود الإفريقي وكينونته ذلك أن القصص "تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص"[23] إن التساؤل الذي يطرحه إيزولو بطل الرواية في الفصل الأول "كيف فشل في سرد الحكاية كما سمعها من والده؟"[24]

يضاف إلى ذلك استغرابه من أفودايل لكن أفودايل لم يكن من النوع الذي يروي الحكاية إلى نهايتها يعكس إدراك أتشيبي التام بأن "تكوين الهوية السردية سواء أكان الشخص أم لجماعة تاريخية هو الموقع المنشود للانصهار بين السرد والخيال"[25] لقد ضمن أتشيبي محكيه الإطار محكيات صغرى من ذلك ما ورد على لسان وافو وأوبياجيلي حين افترشا الحصيرة أمام أمهما "أي قصة تريدان سماعها؟"[26] وسردها لقصة الصراع بين الزوجة الأولى والثانية هو تجسيد الصراع الرجل الأبيض مع الأصلانيين، ذلك أن "حياة الناس تصبح أكثر معقولية بكثير حين يتم تأويلها في

ضوء القصص التي يرويها الناس وحتى قصص الحياة تغدو أكثر معقولية حين يطبق عليها الانسان النماذج السردية"[27].

إن امتلاك قبائل الايبو كجماعة لسردها الخاص الذي يعكس رصيدها الأدبي، هو مكون لهويتها السردية وهو ما يشير إليه هومي بابا عندما يموضع الأمة بين السردية التي كونتها لنفسها وبين تاريخها الذي تموضع داخله، بحيث لا مدخل لها إلا من خلال ذلك الموضع.

اعتمد أتشيبي على اللغة الانجليزية في روايته ليحقق بذلك عالمية الرد بلغة المستعمر لكنه لم يتقيد بنظم اللغة وقواعدها بل كان متحررا منها إذ عمل على أفرقة اللغة الانجليزية Africanized English إذا اصطبغت انجليزيته بالروح الإفريقية، إن ضرورة التواصل بين المسيطر والمسيطر عليهم في نيجيريا ولدت لغة خاصة تتسم بالكريولية creole تقوم هذه الخاصية التي اعتمدها الروائي في سهم الله على "توظيف استراتيجيات متطورة في مجال تبديل الشفرة والنسخ إلى اللغة الوطنية. وهو الأمر الذي حقق نتيجة مزدوجة تمثلت في إقصاء اللغة الإنجليزية القياسية واستيعاب لغة انجليزية بوصفها خطابا ذا دلالة ثقافية"[28].

إن استخدام أتشيبي لعديد الكلمات الإفريقية التي تعذر وجود مقابلها بالانجليزية من ذلك كلمات مثل اليام yam وتسميته لأيام الأسبوع بما يوافق الثقافة الإفريقية «أوي» «آفو» «كوا» بالإضافة إلى تقديم التحية بطابعها المحلي.

أوموارو وينو

أجاب الرجال: هيم [29]

إن نشدان أتشيبي لهذا الضرب الجديد من الأساليب في الكتابة هو رفض للاستقطابات المتعلقة بلغة المركز، ذلك أن النظرة التقليدية للغة بوصفها ممارسة

معيارية للتواصل أو الكتابة قد تم تجاوزها بعد بسط الامبريالية البريطانية لهيمنتها، وأصبح المجتمع اليوم أمام ما يعرف "بالجوانب المتعارضة لخطاب ذي شفرة مشتركة"[30] بتعبير فريدريك جيمسون، لقد أقصى أتشيبي لغة المركز المعيارية وأعاد هيكلتها بحيث جعلها تتسع لتشمل استخدامات جديدة ليعكس بذلك الاختلاف والانفصال عن المعيار، إن رؤيته تنبني على إقصاء الافتراضات ذات الطابع الجوهري لهذا المعيار ،فضلا عن تفكيك مركزيته.

5. دينامية الذاكرة والتأسيس للهوية: يجنح أتشيبي إضافة إلى كل العناصر سابقة الذكر، إلى تجنيد الذاكرة في سرده لا "كماض يتم استرجاعه لتطويع الحاضر بل الذاكرة كنظام من الاعتقاد"[31]، وهو ما يؤكده الفصل الثامن عشر من الرواية"[32] ...الاحتفال بالعيد الجديد الذي تتذكر فيه القرى الست مدى تضامنها في الأيام القديمة "وتؤكد ذلك أيضا المشاعر المصاحبة لفعل التذكر عند إيزولو يقول الراوي "يجتاحه غضب كلما تذكر ما فعله أعداؤه من تقسيم للقرى الست"[33] إنّ التذكر هنا لا ينبني كآلية تاريخية فحسب بل يتجاوز ذلك إلى كونه استراتيجية لجأت إليها القبائل الست لبناء ماضيها وصناعة تاريخ وذاكرة خاصة بها، خاصة وأنّ "فعل التّذكر يضرب بجذوره في الثقافة التي ينتمي إليها وتعمل الأنساق الثقافية على بنائه وتوجيهه بوصفها آليات للهيمنة والتّحكم في الممارسات الاجتماعية، تُفرزها الثّقافة وتعمل على تحميلها بقيم ومعايير وأعراف تمثلها وتعكس طبيعة تكوينها وتمايزها عن غيرها"[34]

إنّ وظيفة الذاكرة الجمعية في سهم الله لا تتوقف عند كونها تمثيلا للماضي أو استرجاعا لوقائع فتلك طبيعة عملها، إنما يتم استخدامها من أجل غايات كبرى تتعلق بوجود الجماعات والقبائل المرتبطة بها، فالذاكرة الجمعية تعمل على تحديد هوية

القبائل الجمعية وتعزيزها، ذلك أنّها تُخبر منتسبيها من هم ومن أين جاؤوا وكيف ينبغي استنادا إلى ذلك أن يتصرفوا في الحاضر والمستقبل، إنّ أتشيبي باتكائه على الذاكرة يتجاوز حالة الإقصاء الوجودي التي غالبا ما تنتهجها الأيديولوجية البيضاء التي تستميت في سبيل سحق تواريخ الآخرين ومحوها، ليؤكد الروائي بذلك أنّ الذاكرة" عنصر لمكون ثقافي تأسيسي يتعلق بحياة الجماعة ويرتبط بشروط وجودها"[35]، إن أحاديث إيزولو مع أبنائه ورعيته وحتى مع خصومه من القبائل الأخرى، وتذكيره لهم باستمرار لما كانوا عليه تأكيد على أنّ الذاكرة الجمعية هي الماضي الفعال الذي يُشّكل هوياتنا، "فمن خلال فعل التّذكر الجماعي ينضج ويترسخ الشعور بالهوية"[36]، التي تُصبح نتاجا للرؤية والتأويل المشترك للماضي الخاص بالقبائل الست، وبناء على ما سبق فالذاكرة والهوية تعبّران عن تركيبة متواشجة ومتداخلة من عوامل التأثير المتبادل بينهما، فكلاهما يسهم في تغذية الآخر وتشكيله، كما أنّ المعتقدات والتصورات النمطية والأعراف والتقاليد هي ما يؤسس لخصائص الهوية وملامحها، والذي يعمل على ترسيخها وتعليمها هي الذاكرة الجمعية، وهذا المركب الكلي هو الذي يشكل الثقافة بكل مركباتها، والذي يتم إفرازه على شكل موروث ثقافي تتناقله الأجيال ومن ذلك تذكيرهم بعادة الاحتفال بالأعياد وتناول مادة اليام فيها، باعتبارها مادة تعكس خصوصية تلك القبائل إنّ حرصهم على تذاكر هذه العادة بينهم وإنزالها موضع القداسة يؤكد على أنّ كل ثقافة تحدد ما ترغب بنقله وكيفية نقله ولمن يجب نقله، لأجل تعزيز "الإيمان بجذور مشتركة ومصير موحد، أي الوعي بالهوية وإدراكها"[37] ومسألة الذاكرة هنا هي أيضا رهان المركز في بسط هيمنته على القبائل فالرجل الأبيض ممثلا في وينتابوتا يسعى لخلق ذاكرة وهمية يغذيها بذكريات تتواءم ومخططاته الاستعمارية وفي الحين ذاته يعمل على تفكيك الذاكرة الأصلية للقبائل عبر استدعائه لسرديات مختلقة ومضللة لا أساس لها من الصحة محاولا إقحامها في

ذاكرة القبائل وهو بذلك يستثمر الذاكرة في مسألة الترويج للصورة النمطية، يقول وينتربوتوم" هذه البنادق لها حكاية طويلة وشيقة ...كان أهل أوكبيري وجيرانهم من أومواروا أعداءً أو هكذا كانوا قبل مجيئي ...إذا سمعت أحدا يتحدث عن أوتيجي إيجب فلتعرف أنّهم يتحدثون عني" ص43 إنّ تعرض الهويات للتّهديد أو استشعارها لخطر يستهدف كينونتها باعتبارها هويّة يجعلها تستنجد بذاكرتها الجمعية وتفزع إليها لتستدعي السرد كي يحكي مرويات عن وجودها وأصلها وماضيها لتعزّز بذلك تكاتفها ووحدتها في وجه التحديات التي تواجهها مع المركز، أي أنّ الذاكرة تمثل هي الأخرى أداة مقاومة لحملات التبشير التي سعت بكل السبل لمحو ذاكرة التقاليد الخاصة بالإيغبو واستبدالها بقيم من شانها تمرير مخططات الرجل الأبيض وإشباع استعلائيته وشعوره بالفوقية، إن الصراع بين ماضي القبائل (عاداتهم وتقاليدهم) والحداثة التنويرية التي تذرع بها المستعمر لتبرير ممارسته الوحشية بحق أهالي القبائل الست يعكس تأثير ضياع الذاكرة الجمعية على المجتمعات الهامشية التي تعرضت للاستعمار ذلك أن فقدان الذاكرة هنا ينجم عنه بالضرورة فقدان الهوية الثقافية، يجرنا كل هذا للجزم بكون الذاكرة صمام أمان في وجه التغييرات التي تفرضها المراكز الاستعمارية، لقد سعى أتشيبي على امتداد السرد للتأكيد على أن فقدان الذاكرة الثقافية سببه الرئيس هو الاستعمار متسلحا بأيديولوجيات مختلفة

6. خاتمة: انطلق أتشيبي في رواية سهم الله من رؤية واضحة، اتخذت من تقويض المركز منطلقا لها تتأسس هذه الرؤية من إدراكه لخطورة الصورة التي تبنتها الإمبراطورية فكرا وجسدتها كتابة

إن إفريقيا التي رسمها أتشيبي من خلال التنوع الهوياتي والاختلاف والثراء التراثي، هي غير إفريقيا التي عهدها القراء في روايات من مثل قلب الظلام لجوزيف كونراد.

يفضي نموذج أتشيبي في الكتابة باعتباره نموذجا ما بعد استعماري؛ إلى جملة من السمات التي تم استجلاؤها من خلال رواية سهم الله، أبرزها الانطلاق من الهوية المحلية للقبائل الإفريقية والاحتفاء بها من خلال اظهاره للسمات الإقليمية الخاصة، يضاف إلى ذلك إعلاؤه من حدة التوتر بين الهامش والمركز ومغايرة ملامح المركز الإمبريالي سعى أتشيبي من خلال جميع فصول الرواية إلى ابراز الذات الإفريقية بكل ما تحمله من خصوصية ثقافية كما عمل على تعرية الأدوات الإيديولوجية (كالدين والتعليم) التي تلحف بها المركز في تمريره لمخططات السيطرة غير المباشرة، إن إدراكه أن خلخلة المركز وتفكيك الامبريالية كفكرة عالمية قاده إلى انتهاز لغة المركز لإنتاج خطاب مضاد، أسس من خلاله لصورة غير الواردة في المعتقد المتبنى من قبل الإمبراطورية، ليثبت بذلك أن التابع بإمكانه أن يتكلم، إن هذا التعارض بين السرديات الثقافية الإمبريالية التي جنحت لتشويه الهوية الإفريقية وإعادة تركيبها بما يتوافق ورؤاها، وبين السردية التي يصوغها أتشيبي في الرواية يؤكد أن مواجهة كل المرويات التنميطية المتورطة في خدمة المركز لابد أن يكون في ضوء مرويات أخرى تأخذ دور الخطاب المضاد.

7. قائمة المصادر والمراجع:

7-1: المصادر:

1. تشينوا أتشيبي: سهم الله. تر: سمير عبد ربه. هنداوي ط1. يورك هاوس، المملكة المتحدة. 2014.

7-2: المراجع:

1. إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان،2014.

2. بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، تر سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدا البيضاء، بيروت،1999.

3. بيل أشكروفت: الرد بالكتابة، تر شهرت العالم، ط1، المنظمة العربية للنشر، 2016.

4. رولان بارت: هسهسة اللغة، منذر عياش، مركز الانماء الحضاري، ط1، حلب، سوريا، 1999.

5. سمير حجازي: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، مصر،2001.

6. شهلا العجيلي: الهوية الجمالية للرواية العربية رؤية ما بعد استعمارية، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، لبنان،2020.

7. عبد الستار جبر: الهوية والذاكرة الجمعية إعادة إنتاج الأدب العربي قبل الإسلام، أيام العرب أنموذجا، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2019

8. كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر جال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر،2018.

9. كاندو جويل: الذاكرة والهوية، تر: وجيه أسعد، وزارة الثقافة السورية، 2009، ص135

10. نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2004،

8. الهوامش والإحالات:

[1] – شهلا العجيلي: الهوية الجمالية للرواية العربية رؤية ما بعد استعمارية، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، لبنان، 2020، ص08.

[2]– تشينوا أتشيبي: سهم الله، تر سمير عبد ربه، هنداوي، ط1، يورك هاوس، المملكة المتحدة، 2014، ص82.

[3]– نفسه، ص82.

[4]– بيل أشكروفت: الرد بالكتابة، تر: شهرت العالم، ط1، المنظمة العربية للنشر، 2016، ص52.

[5]– تشينوا أتشيبي: سهم الله، ص110.

[6]– نفسه، ص182.

[7]– نفسه، ص212.

[8]– نفسه، ص212.

[9]– نفسه، ص200.

[10]–نفسه، ص200.

[11]–نفسه، ص200.

[12]– سمير حجازي: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، مصر،2001، ص70.

[13]– رولان بارت: هسهسة اللغة، منذر عياش، مركز الانماء الحضاري، ط1، حلب، سوريا، 1999، ص486.

[14]– كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر جال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر،2018، ص240.

[15]– تشينوا أتشيبي: سهم الله، ص36.

[16]–نفسه، ص167.

[17]–نفسه، ص65.

[18]–نفسه، ص192.

[19]–نفسه، ص131.

[20]–نفسه، ص147.

[21]–نفسه، ص120.

[22]–نفسه، ص156.

[23]– إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان،2014، ص251.

[24]– تشينوا أتشيبي: سهم الله، ص14.

[25]– بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، تر سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء بيروت،1999، ص251.

[26]– تشينوا أتشيبي، سهم الله، ص174.

[27]– بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، ص251.

[28] – بيل أشكروفت: الرد بالكتابة، ص87.

[29] – تشينوا أتشيبي: سهم الله، ص24.

[30] – بيل أشكروفت: الرد بالكتابة، ص70.

[31] – ينظر حسن نجمي: شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص160.

[32] – تشينوا أتشيبي: سهم الله، ص72.

[33] – ينظر: نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2004، ص19.

[34] – ينظر: عبد الستار جبر: الهوية والذاكرة الجمعية إعادة إنتاج الأدب العربي قبل الإسلام، أيام العرب أنموذجا، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2019، ص53.

[35] – نفسه، ص53.

[36]– ينظر: كاندو، جويل: الذاكرة والهوية، تر: وجيه أسعد، وزارة الثقافة السورية، 2009، ص135.